المرأة عبر التاريخ

يذهب بعض علماء الأنثروبولوجى إلى أن المرأة فى ما قبل التاريخ كانت ملكا مشاعا بين الرجال فى مرحلة الصيد، وجمع الثمار كما اشتمل هذا النظام أيضا - على ضوء دراستنا للتاريخ، والقبائل البدائية الموجودة حاليا - على الزواج الجماعى، وتعدد الأزواج، والزوج المفرد؛ كما توجد أشكال عبارة عن خليط منها جميعا، كما اقترن الجنس دائما بالمرأة عبر التاريخ، ينشط كلما نشطت المرأة لممارسته بأى شكل من الأشكال؛ سواء الشرعية، أو المحرمة، واقترن الجنس عادة بالقذارة عندما عجز الإنسان فى فجر حياته عن تفسير هذه العملية؛ بيد أنها اقترنت فى ذهنه بالاشمئزاز من الدم الذى يتدفق عند افتضاض البكارة، ودم الحيض، والأخلاط، والسوائل التى تفيض عن المرأة أثناء الوضع، وأثناء العملية الجنسية نفسها..

وليس أدل على دور المرأة فى الإثارة الجنسية، وولع الرجل بها فى عصور الإنسان البدائى من تلك التماثيل الصغيرة المكتشفة فى جنوب فرنسا؛ والتى تمثل المرأة عارية إلا من بعض أدوات الزينة(لماذا؟)، والمدقق فى تفاصيل تلك التماثيل ذات النهود الكبيرة، والأفخاذ العريضة، والبطون، وأعضاء التناسل البارزة يتضح له الولع الحسى، والشهوانى للفنان تجاه هذا المخلوق الذى لا ينظر له إلا كأداة من أدوات المتعة الموجودة فى الطبيعة؛ خاصة أن هذه التماثيل لا تهتم بتقاطيع الوجه؛ بل فى كثير من الأحيان لا يظهر لها وجه أصلا؛ وهو ما يثبت تلك النظرة إلى المرأة فى العصور البدائية من أنها ليست إلا العضو التناسلى، وما يحيط به من صفات جنسية ثانوية كالصدور، والأفخاذ الممتلئة، والأرداف المستديرة التى لم يكن له هدف منها سوى المتعة، أما الحفاظ على النوع فقد كان هدفا ثانويا لم يكن يمارسه الإنسان إلا كنتيجة لابد منها، ولا بأس بها فى نفس الوقت..

والملاحظ أن جميع التصاوير التى ترجع إلى العصر الحجرى القديم للمرأة ظهرت فيها الأعضاء

obeikandl.com

التناسلية، والأعضاء الجنسية الثانوية بدقة تشريحية بالغة تبدو فى بعض الأحيان أكثر تجسيما عما هى عليه فى الطبيعة؛ خاصة أن مناخ هذا العصر اتصف ببرودة الجو الذى يتميز بمظهرين؛ الأول هو أن هذا الجو يجبر المرأة على ارتداء الملابس، والثقيلة منها بالذات، والثانى قلة النشاط، والحركة فى هذا الجو الذى يجعل الإنسان يلزم كوخه، لا يغادره كثيرا فينفق الوقت فى إشباع الرغبة الجنسية التى يحفزه عليها وجود المرأة معه سواء كانت واحدة، أو أكثر..

ويبدو أن المرأة قد تمتعت بقدر من السحر، والدلال فى هذا العصر مما جعل الرجل يتوسل إليها، ويذوب فيها عشقا، وغراما كما تدل الشواهد التى تم العثور عليها كصورة منقوشة على العظم فى «المغارة استورتز «Isturitz فى أقصى جنوب غرب فرنسا، ويظهر فيها رجلا رافعا يديه ناظرا إلى امرأة عارية، متوسلا إليها بنظراته وهى لا تكترث به، وهو ما يوضح قدر المرأة فى هذا العصر، وأهميتها للرجل بحيث لا يمارس معها العنف، أو الخطف، أو الاغتصاب؛ بل يعرف لها قدرها، وشخصها، وعزة نفسها..

ويرجع عدم ظهور المرأة ممثلة للأمومة فى هذا العصر إلى حرفة الرجل الصياد الذى لا يرغب كثيرا فى التناسل، وزيادة العدد، فالصيد لا يحتاج إلى أفراد كثيرين مثل الزراعة، والوارد المتحصل عليه من الصيد لا يكفى الأعداد الكبيرة، ولا يمنع هذا من ظهور صور، وتماثيل لهذا العصر على هيئة نساء حبالى؛ فالدور الاقتصادى للمرأة كان محدودا؛ انحصرت مسئوليتها فقط فى إعداد الوجبة الغذائية من صيد الرجل سواء أكان من اللحم، أو الحبوب، أو الثمار، وكان من الممكن أن يقوم الرجل بإعدادها، فيبدو أن دور المرأة لم يتعد مساعدة الرجل فى إفراغ طاقته الجنسية، واللهو بها، والاستمتاع..

كان أول عمل قامت به المرأة مساهمة منها فى الكفاح من أجل العيش، وقهر الطبيعة قد تمثل فى صورة عثر عليها فى أحد كهوف عصر الجليد لامرأة تقف على سلم مجدول من الحبال تجمع العسل من خلايا النحل، وتضعه فى سلة إلى جانبها..

انتهى عصر الجليد بانسحابه من مساحات شاسعة ليحل الجفاف الذى هرب على أثره الحيوان، أو هاجر إلى بقاع أخرى من العالم؛ فانتهى عصر الصيد، وعرف الإنسان استئناس بعض الماشية للتربية، والتوالد فأدرك كيفية التوالد، وأهميته، وكم من الزمن يمر بين الإخصاب، والولادة، ولم تكف الماشية وحدها لسد الجوع فتعلم الإنسان بذر البذور، وحصادها للحصول على كمية كبيرة منها فعرف

التكاثر، والنمو، ونشأت الزراعة التى تحتاج لعدد أكبر من الأيدى العاملة؛ فعرف أهمية النسل، وعرف استخدام المرأة لهذا الغرض لمساعدته فى الزراعة؛ فاتضحت الأهمية العملية للمرأة بأنها ليست للمتعة، واللهو فقط، كما وقع على المرأة عبء العمل الشاق، غير المساعدة فى الزراعة بإعداد الكساء لها، ولأفراد الأسرة، وهو ما كان يحتاج لغزل، وجدل الصوف، والشعر، والألياف النباتية..

ولما كان العصر بصفة عامة فى كافة القبائل التى عاشت فى ذلك الوقت هو عصر الشيوعية الجنسية؛ فقد كانت السيادة أصلا للمرأة قبل قيامها بالأعمال المذكورة، فكان عصر السيادة للأم Gusmaternum حيث كان من المتعذر معرفة والد أى طفل، فكانت الصلة الطبيعية الوحيدة المؤكدة هى صلة الطفل بأمه، لذا كانت الأمهات، أو النساء عموما لهن المكانة المرموقة فى ذلك العهد، وكانت لهن السيادة، والرياسة فى كل الأمور الخاصة بالقبيلة، وكانت حكومة النساء هى الصورة السياسية الأصلية بين جميع الشعوب القديمة، وبعد جهاد شاق، وطويل كانت نتيجته ظهور الأسرة ذات الزوجة الواحدة، فلما تحقق ذلك أصبح من المعروف أيضا من هو والد الطفل، وعند ذلك أصبح الرجل هو الشريك البارز فى هذه المشاركة الجنسية، وكانت النتيجة، أن حلت سيادة الأب Guspaternum محل سيادة الأم..

ويفسر لنا العالم الأمريكى «لويس مورجان» هذا الانتقال من معلوماته عن الشعوب القديمة، والأقوام البدائية التى تعيش فى الوقت الحاضر خاصة هنود الأركواز فيقول:

-«لما تقدمت ظروف الإنتاج، وأصبح من الممكن لكائنين بشريين أى رجل، وامرأة أن يقوما بأودهما اقتصاديا عن طريق تربية الماشية، والزراعة دون الحاجة إلى معونة زملائهما من أفراد القبيلة ظهرت الأسرة، وأصبحت وحدة متماسكة أساسها الزوجة الواحدة، وهكذا صار نظام الأسرة ذات الزوجة الواحدة يدا بيد مع تطور الملكية الخاصة..

ولما أصبح الرجل من الناحية الاقتصادية هو الأكثر نشاطا، والشريك الأقوى من الناحية الجسمانية خضعت المرأة لسيطرته من الناحية الجنسية، ومن جميع النواحى الأخرى فأصبحت امرأته بمعنى الكلمة، وخضعت لكل أنواع السيطرة التى يفرضها العالم المستبد على رعاياه، فكانت تعيش من أجل الرجل وحده، وتعاقب بأقصى العقوبات فى حال خيانتها للرجل، وقد تصل العقوبة فى بعض الأحيان إلى حد الموت، بينما احتفظ الرجل لنفسه بحق الاتصال بأي امرأة أخرى؛ بل كان له الحق فى كثير من البلاد أن يحتفظ لنفسه بعدة نساء بصفة دائمة إذا كانت موارده الاقتصادية تمكنه من ذلك،

ومن هنا حلت سيادة الرجل الاصطناعية مكان السيادة الطبيعية للمرأة»..

ومع التقدم الاقتصادى تميز المجتمع إلى طبقات فتأثرت المرأة بالتالى بهذا النظام؛ فأفراد الطبقة العليا يرون أنهم من سلالة الآلهة فتمتعت المرأة بقدر كبير فى الحرية الجنسية مثل الرجال، على شرط عدم تدنيس دماء هذه الطبقة بالزواج من رجال متواضعى الأصل، ولكن يمكن للرجل الزواج، أو معاشرة المرأة من أى طبقة؛ لأنه شرف لها..

ويقل مركز المرأة الاجتماعى فى الطبقات الوسطى بسبب العامل الاقتصادى، فالرجل هو التاجر، والصانع، والذى يعمل فى الخدمة العامة، أما المرأة فتقوم بأعمال أخرى لا تؤجر عليها كالزراعة، وأعمال البيت، وتربية الأولاد، وإرضاعهم، وإعداد الكساء، وغيرها من الأعمال، وعليها أن تكون مخلصة للرجل؛ فإن لم تكن كالمتاع فى نظره فهى تابعة له قد حازها كى تنجب له الأولاد..

أما فى الطبقات الدنيا فقد سوى الفقر بينهما تماما؛ فهى تعمل معه جنبا إلى جنب منذ الصبا، والشباب؛ فنمت بينهما الشيوعية الجنسية حتى إذا بلغت هى سن العشرين، وبلغ هو سن الثلاثين يرتبطن مع الرجال فى العلاقات الجنسية بمقتضى عقد من العقود العادية؛ لا يمكن أن نسميه زواجا من وجهة نظر القانون المدنى، فالعقود الزوجية كانت للطبقة العليا فقط، بيد أن الدولة لا تعنى بهذا الزواج، أو صورته بقدر عنايتها بنتائج هذا الزواج من ذرية تزيد عدد السكان لتوفير الأيدى العاملة، والدفاع عن القبيلة، ثم عن الدولة فيما بعد خاصة فى بلاد الصين القديمة، وبلاد الشرق الأدنى القديم فى «بابل»، حيث تعاقب المرأة التى تحاول قتل جنينها بأشد العقوبات، فإذا توفيت حرمت من طقوس الدفن المعمول بها، وإذا ما ضرب رجل سيدة حامل فعليه دفع غرامة كبيرة، أو العمل بالسخرة لمدة شهر، وكانت الغرامة تختلف باختلاف طبقة المرأة..

المرأة فى مصر القديمة:

تميزت مصر القديمة بما نسميه الآن زواج المحارم، فكانت المرأة هى المرأة مهما قربت، أو بعدت من الملك، فقد كان الرجل فى القانون المصرى القديم هو المالك لثروة الأسرة كلها، فإذا مات انتقلت الثروة إلى أقارب الزوجة، فالملك الذى يرغب فى الاحتفاظ بثروة الأسرة وهى غالبا أراضى البلاد كلها كان مضطرا إلى الزواج من أخته، ويرى البعض أن لهذه العادة جذور دينية تتصل بعبادة إيزيس،

وأزوريس، وقد ظلت هذه العادة على طول عصور مصر القديمة تزيد، وتنقص حتى ظهرت لآخر مرة فى عصر البطالسة خلفاء الإسكندر الأكبر، ولم يمنع هذا الزواج الملك من اتخاذ محظيات، وعشيقات، فكان لرمسيس مائة وستون ولدا، وكذلك الحال فى الملكات اللواتى جلسن على عرش الفراعنة مثل حتشبسوت، وكيلوباترا لم يكن يقنعن بأزواجهن فقط..

وبعد حتشبسوت ظهرت حركة مناهضة النساء التى قام بها أخوها عن طريق الجيش لمحو اسمها، وآثارها من جميع المبانى العامة، والسجلات حتى عهد الأسرة الثالثة والعشرين فى القرن الثامن قبل الميلاد حيث أصبحت إحدى الأميرات كبيرة كهنة معبد آمون فى طيبة، وكان يشبه معبد دلفى فى بلاد اليونان؛ فكان كهنة هذا المعبد يستشارون فى المسائل السياسية الكبرى، بما يمكن اعتبار المعبد حكومة نسوية غير رسمية، فعادت سلطة النساء التى ظلت قيد الوجود أكثر من مائتى عام حتى الغزو الفارسى لمصر..

كيلوباترا:

أوصى والد كيلوباترا «بطليموس الثالث عشر» لابنه بطليموس الرابع عشر بالعرش بمشاركة أخته كيلوباترا التى كانت تكبره على أن يتزوجها، ولكن بطليموس الرابع عشر استلب العرش لنفسه ففرت كيلوباترا خوفا على حياتها إلى سوريا حتى جاء «يوليوس قيصر» إلى مصر متتبعا غريمه المهزوم «بومبى» الذى هزمه قيصر فى موقعه «فرسالوس»، فلما وصل إلى الإسكندرية وجده قد قتل فانتهزت كيلوباترا فرصة وجوده فى الإسكندرية، واستخدمت دهاءها، ومكرها للقيام بدور تمتلك به عرش مصر بعد أن تستولى على عرش قلب يوليوس قيصر، فاستعانت بأخلص عبيدها «أبوللو دورس» الذى كان مفتول العضلات، ضخم الجثة ليبحر معها إلى المرفأ الصغير أسفل القصر الملكى، ولما كانت كيلوباترا نحيلة فقد لفها فى سجادة، وحملها على كتفه ذاهبا بها إلى القصر متذرعا بعرض تحفه الفنية على قيصر العظيم فسمح له الحرس بعد أن أغدق عليهم القطع الذهبية حتى ذهب أمام قيصر فنشر السجادة لتقفز الفتاة النحيلة الرقيقة بخفة، ورشاقة واقفة أمام قيصر، أُخذ الرجل بالوجه الجميل، والجسم اللدن، والصوت المنخفض ذى الجرس العذب؛ فضلا عن خطتها البارعة لمقابلته، وعبقريتها الفاتنة التى أُخذ بها، وفى صباح اليوم التالى استدعى القيصر أخاها الملك

الصغير ليوفق بينهما، وأخذت بعدها تزداد اعتمادا على الحيلة، والخديعة لتصل إلى رغباتها أكثر من اعتمادها على سحرها النسوى، وجمالها بعد أن نضجت، وعركتها الحياة والتجارب..

أججت كيلوباترا فى نفوس الرومان؛ وعلى رأسهم القيصر، وأنطونيو حبهم للفخامة، والأبهة فأبدعت فى تهيئة البلاط الملكى المصرى بأبدع النقوش المحمولة على دعائم مغطاة بصفائح الذهب الخالص، أما الجدران فكانت من الإبريز الخالص، كما حرصت على تقديم ما لذ، وطاب من الطعام، والشراب مما يجود به البحر، والبر، والسماء على المآدب التى تحيطها أحسن الخمور المعتقة، ويقوم بخدمتها جمع كبير من العبيد من مختلف الملل، والأجناس..

أمضى قيصر خمسة شهور إلى جانب كيلوباترا متذرعا بالحروب التى دارت رحاها عند الإسكندرية، ومتغيبا عن روما التى أصبح صاحب الكلمة العليا فيها، وقد فتحت أذرعها ليكون قيصرها، وإمبراطورا لها لو شاء، ولكنه ظل قابعا بجوارها..

إن الحياة الرخصة الناعمة التى وفرتها له كيلوباترا بالإسكندرية بعد تسع سنوات من عمله الشاق المتواصل، والمصاعب، والمخاطر الحربية فى المعسكرات المختلفة أصبحت محببة إلى نفسه، كما أن رقة كيلوباترا، وعاطفتها المشبوبة، ومشاعرها الرقيقة اجتذبته إليها، فقد كانت تعيش من أجل الحب، وقد اختارت العشيق الذى يستطيع أن يمنحها القوة، والسلطان، وكل ما تريد، وكانت تعرف أن سلطانها على قيصر رهنا بحبه لها، فإن تزوجته خبا ذلك الحب خاصة بعدما تحرك ابنه فى أحشائها، والذى بررت وجوده أمام شعبها عن طريق الكهنة بأن قيصر إله الشمس، اضطر قيصر للعودة إلى روما بعد أن واجه أنطونيو - نائبه عليها – الفتن، والقلاقل، وذلك لحفظ الأمن، والنظام، وتوطيد مركزه بها، وحث كيلوباترا على الحضور إلى روما مع ابنها قيصر الصغير، ولكى تمنع الشائعات عنها اصطحب معها أخاها، وزوجها الثانى؛ فلما استاء أهل روما لحضورها عادت إلى مصر، ولكنها رحلت إلى روما مرة أخرى، ولم تمكث طويلا إذ هاجم المتآمرون قيصر، وطعنوه..

اتجهت كيلوباترا بخيالها نحو أنطونيو خليفة قيصر الذى أصبحت بلاد الشرق الأدنى؛ ومنها مصر من نصيبه، فسار إلى سوريا تحيط به مواكب النصر كالملوك الفاتحين، وفى طريقه إلى هناك أرسل إلى كيلوباترا كتابا طالبا إليها أن تقابله فى طرسوس، وكانت هذه الدعوة هى الفرصة المواتية لها، وقد استغلتها أفضل استغلال، فمارست دلالها عليه بتأجيل الرحلة أمدا طويلا لتثير فى نفسه الشوق، وتؤجج رغبته فى لقائها، ثم ذهبت إليه فى أسطول بحرى لم ير التاريخ مثيلا له فقد طعمت سفينتها

obeikandi.com

بالذهب، أما أشرعتها فكانت من الحرير القرمزى، وكانت مجاديف البحارة من الفضة؛ حيث كان التجديف على أنغام الموسيقى، والأغانى، يعزفها، ويشدو بها فتيات جميلات، أما كيلوباترا نفسها فقد استلقت على تكئة على شكل صدفة البحر، متخذة هيئة فينوس وهى خارجة من أعماق البحار، يلتف حولها صبية صغار على هيئة كيوبيد - إله الحب لدى اليونان - يروحون عليها بمراوح من ريش النعام، وما إن وصلت السفينة إلى الشاطئ حيث ينتظر أنطونيو حتى انبعثت رائحة الطيب، ملأت الجو أريجا منعشا، وأضفت جوا حالما، ودوت عاصفة من الأصوات المختلطة ترحب بمقدم كيلوباترا ملكة مصر..

انبهر أنطونيو بهذا المشهد الفريد، ونزل من نفسه موقع الاستحسان، وأثار أحاسيسه؛ فأرسل إليها يدعوها للغذاء، ولكنها ردت رسله داعية إياهم إلى وليمتها..

بلغت كيلوباترا السابعة والعشرين وهى فى أوج سحرها، وجمالها، واتقاد ذكائها الأنثوى، ولها من الأريحية، والمبادأة ما لم يتوافر فى غيرها من النساء، الأمر الذى جعل أنطونيو يتبعها كجرو صغير، فصار إليها فى العالم التالى فى الإسكندرية شتاء ليرتمى فى أحضانها محاطا بكل مظاهر الأبهة، والعظمة، وكل أشكال الخلاعة، والفجور، فأصبح عاشقها الولهان، المطيع لها فى كل أمر، فكانت تلعب معه النرد، وتحتسى الخمر، وتجوب معه الشوارع، والمحال العامة ترتدى ثياب الغانيات حتى مطلع الشمس..

ولا يدوم الترف طويلا إذ أرقته الاضطرابات فى روما فرأى أن يتزوج أخت «أكتافيوس» منافسه فى الوطن تدعيما لسلطانه، على الرغم من أن زوجته كانت امرأة مخلصة، وعلى قدر كبير من الفتنة، والجمال، وقد بذلت كيلوباترا محاولات كثيرة للإيقاع بينه، وبين زوجته على أيدى أعوانها، إلا أنه تمسك بها طوال سنوات ثلاث، وكانت كيلوباترا تطمح أن تكون لها السيادة على العالم؛ فبادرت بالزواج منه لتصبح مصر هى القوة الرئيسية فى حوض البحر المتوسط، ولكنه دخل فى صراع مع أكتافيوس بعد أن فشل مشروع زواجه من أخته..

تمسكت به كيلوباترا زوجا، وعشيقا فقد قالت له:

-«لقد أصبحت زوجتك، فلو تخليت عنى لأصبحت موضع العار أمام العالم».. فقبع بجوارها، وتقاعس عن النهوض للقضاء على الثورات، وعن العودة إلى روما؛ حتى عندما أحرز النصر على الأرمن، احتفل بهذا الانتصار فى الإسكندرية بدلا من الاحتفال به فى روما، الأمر الذى استاء له أهل

روما، وزاد الطين بلة أنه أعلن كيلوباترا ملكة الملوك، وابنه منها هو ملك الملوك، وانزعج أكتافيوس لهذه الأمور فكان لا مفر من نشوب الحرب بينهما لينتصر عليه أكتافيوس فى موقعة «أكتيوم» البحرية..

أصرت كيلوباترا على أن يكون القتال بحرا بين أنطونيوس، وأكتافيوس رغم نصيحة القواد العسكريين فقط لأنها ستبدو أكثر فتنة، ودلالا عندما تشرف على المعركة من فوق ظهر سفينتها، فلما حلت الهزيمة بجيوش أنطونيوس فرت هى بسفنها الستين التى اشتركت بها فى المعركة إلى الإسكندرية، يتبعها أنطونيوس بعد أن تخلى عن القتال، ولما اقترب الأسطول من الإسكندرية وضعت أكاليل النصر، وعلا صوت البحارة بأناشيد النصر لتظل محتفظة بنفوذها، بيد أن المأساة كانت قد قاربت النهاية بعد أن ضحت بحبيبها أنطونيوس علها تفوز بلقب أكتافيوس المنتصر، ولكنها فشلت هذه المرة، ولم تفلح إلا فى خداع حراسها؛ فتناولت السم حتى لا تكون واحدة من السبايا فى موكب النصر الذى سيخترق شوارع روما..

المرأة فى بابل:

كانت مهمة المرأة الأساسية فى بابل هى إنجاب الأبناء، والعناية بشئون المنزل، والقيام بكل ما من شأنه بعث البهجة، والسرور، والمتعة فى نفس الرجل، وهذا لا يعنى استبداد الرجل بها بل كانت شريكته؛ فكما كان عليها واجبات معينة فقد كان لها حقوقا مرعية، كما كانت مساوية للرجل أمام القانون إذ كانت دولة بابل ينظمها القانون المكتوب بعد أن جمع الملك حمورابى منذ بداية الألف الثانية قبل الميلاد التشريعات، والقوانين التى كانت موجودة إلى ذلك العهد فى قانون موحد ظل ساريا عدة قرون، وكانت النواحى الاجتماعية تحوى قسما خاصا من هذا القانون الذى فاق فى اتساعه، وشموله أى قانون آخر ظهر فى العالم القديم، وقد حمى هذا القانون الضعفاء من ظلم، واستبداد الأقوياء، ومن بينهم المرأة، واهتم هذا القانون بتنظيم العلاقات الإنسانية داخل الأسرة، أى بين الرجل، وزوجته، وبينهما وبين من يمتون إليهما بصلة..

كان الزوج فى بابل هو أساس الحياة العائلية، والذى ينظم عقد الزواج، وكان الرجل يتخذ له محظية، أو أكثر تعيش معه فى نفس البيت خاصة إذا كانت زوجته عليلة، أو عاقرا، فإذا لم ينجب

الزوج من زوجته، أو محظياته فله أن يتخذ زوجة ثانية إلى جانب زوجته الأولى، ولكن كان دورها ثانويا تجاه الزوجة الأولى، وكانت دون مركز الزوجة الأولى بكثير؛ بل كان عليها أن تغسل أقدام الزوجة الأولى، وكان الشاب الذى يغرى فتاة بريئة فعليه بزواجها وإلا تعرض للموت، بيد أن هذه العقوبة خفت بعد ذلك؛ لأن شريعة حمورابى لم تبدأ فى التدخل فى حياة رعاياها بهذا الشأن إلا بعد الزواج؛ الذى كان يسبقه عادة تفاصيل الالتزامات المالية..

وإذا أهمل الرجل فى بابل زوجته إهمالا شديدا كان لها الحق فى تركه دون تعويض، فإذا خانها لا يكون عليه عقاب؛ اللهم إلا إذا دفع لها تعويضا، أما الزوجة الخائنة فجزاؤها الموت غرقا، فإذا قبض عليها متلبسة مع عشيقها؛ قيدا معا، ويلقى بهما فى الماء، فإذا لم يكن هناك تلبس، ولم يثبت عليهما هذا الجرم يلقى بهما فى الماء دون قيد، ويترك لإله النهر تقرير مصيرهما، ولما كانت هذه العقوبات شائعة فى بابل فقد كان الرجل الداعر، والمرأة العاهرة فى حاجة إلى إتقان السباحة حتى ينجوا من الغرق فى مياه دجلة، والفرات..

كانت قوانين حمورابى تتضمن مادة صارمة وهى أن للزوج بموافقة المحكمة الحق فى رهن زوجته؛ بل وأولاده ضمانا لدينه، وكانت هذه من الوسائل التى يتخلص بها الرجل من زوجته، وبالتالى التخلص من دينه وإن كان القانون قد حدد مدة هذا الرهن بثلاث سنوات، وقد مدت فترة هذا الرهن إبان عهد الإمبراطورية البابلية الجديدة، ثم تطور هذا الرهن ليصبح نوعا من تجارة الرقيق الأبيض..

وقد اشتدت هذه القوانين بعد الغزو الآشورى لبابل إذ كانت الزوجة الخائنة يجدع أنفها، أما شريكها فكان عقابه الإخصاء إلى جانب عقوبة الإلقاء فى الماء غرقا..

المرأة العبرانية:

لا تختلف النظرة العبرانية إلى العلاقة بين الرجل، والمرأة عن النظرة التى حددتها شريعة حمورابى من قبل، فقد تأثر اليهود - إلى حد كبير - بالقوانين، والمعتقدات البابلية حيث ظلوا فى بابل زمنا طويلا خلال فترة السبى، فكان الزواج لدى اليهود يهدف أصلا إلى إنجاب الأبناء، فإذا لم يحقق هذا الغرض أمكن فسخه، فقد كان اليهود يعيشون فى قتال دائم لأنهم كانوا قبائل من الرعاة، والذرية

obeikandl.com

الوفيرة هى عتاد الحرب، والعمل على حد سواء، فالتوراة تشيد فى مواضع كثيرة بالمرأة الولود، وبضرورة الحرص على النطفة المخصبة، وعدم التفريط فيها إلا فى رحم امرأة تنجب الأولاد؛ فكانت الشريعة اليهودية فى كل أحكامها تشير دائما إلى العلاقات الزوجية حتى إن الرجل الذى يتزوج يعفى من الخدمة العسكرية، ومن العمل الشاق لمدة سنة كاملة تحفيزا على الزواج، فعليه خلال هذه السنة إنفاق كل وقته، ونشاطه فى إرضاء الزوجة، وإنجاب الأولاد..

ولم تكن العزوبية محرمة لدى اليهود بقدر ما كانت من الأمور غير الطبيعية، ولم يكن الرجل مرغما على الزواج إلا فى حالة واحدة فقط وهى إذا ما توفى أخوه الأكبر دون أن يعقب ذكرا، فعلى هذا الأخ الأصغر عبء الزواج من أرملته، وهى عادة معروفة لدى الكثير من الشعوب القديمة وتمسك بها اليهود، وأصروا عليها، ولم تكن هذه العادة من دواعى سرور الأخ الأصغر، فالأولاد الذين ينجبهم عادة ما يكونون ذرية شرعية تنسب لأخيه الأكبر، فكان الأخ الأصغر غالبا ما يتمرد، ويثور، ويروى لنا الكتاب المقدس قصة أونان، وثامار، فقد قال يهودا لأونان:

-«أدخل على امرأة أخيك، وتزوج بها، وأقم نسلا لأخيك؛ فعلم أونان أن النسل لا يكون له؛ فكان إذا دخل على امرأة أخيه ألقى بالإفاضة على الأرض لكى لا يعطى نسلا لأخيه»(التكوين، اصحاح ٣٨، آيات ٨-١٠)..

وكان اليهود يأخذون أنفسهم بكثير من التعاليم التى جاءت فى الوصايا العشر مثل «لا تشتهى زوجة جارك»، أو «لا تزن»، فكان عقاب المرأة الزانية عندهم أقل صرامة عما كان فى بابل، فكانت تجبر على شرب سائل لا طعم له، فإذا انتفخ بطنها كان ذلك دليلا على جرمها، وعند ذلك يلقى بها فى الماء لتغرق، كما نصت القوانين العبرية من ناحية أخرى على أن الذى يشهر بالمرأة دون وجه حق يعاقب بالموت..

المرأة الهندية:

الكتب التى تركها الهنود عن علاقة الرجل بالمرأة جنسيا كثيرة جدا، ويقولون إنه منذ بداية الخليقة كتب «براهما»(الخالق، أو روح العالم فى الديانة الهندية القديمة) كتابا ضخما من مائة ألف فصل لتبصرة النوع الإنسانى بالموضوعات المتصلة بالجنس، والحياة، وتذكر الروايات أن شخصا يدعى

«ناندى Nandi» اختصر القسم الذى يبحث عن الموضوعات الجنسية إلى ألف فصل، وقام بعده «سفيتاكيتا Svetaketa» باختصار هذا الكتاب إلى خمسمائة فصل، ثم اختصره بعد ذلك «بابهرافييا Babhraviya» إلى مائة وخمسين فصلا قسمها إلى سبعة أقسام:

١. الحقائق التمهيدية..
٢. مطارحة الغرام..
٣. الحب الجنسى..
٤. حب النساء المتزوجات..
٥. الحب المحرم..
٦. الدعارة..
٧. أسرار شئون الحب..

كما كتب آخرون بعد ذلك بسنوات الكثير من الكتب فى كل ما يختص بشئون الحب، والجنس مع استثناء «فاسيايانا «Mallanaga Vasyayana» الذى كان فى الأصل طبيبا فوضع كتابا كاملا عالج فيه كل الأوجه السبعة المذكورة، والخاصة بالمعلومات الجنسية سماه «كاما – سوترا Kama Sutra» وقد أطلق عليه البعض «مكيافيللى الشئون الغرامية»، وتدل كلمة «كاما» فى اللغة السنسكريتية على عدة أشياء مثل الحب، والرغبة الجنسية، والإشباع الجنسى، وغير ذلك، وهى أيضا اسم إله الحب عند الهندوس المرادف «لكيوبيد» عند الرومان، و»آيروس» عند اليونان، وهم يمثلونه ممسكا بالقوس، والسهام، وسهامه عبارة عن أزهار عجيبة الأشكال، والألوان، والرائحة، أما وتر القوس فعبارة عن صف من النحل..

ولعل أغرب ما جاء من الهند ما عرف باسم «سونى» وهو تضحية الأرملة بنفسها حرقا فى سبيل تأكيد تعلقها بزوجها، فقد كان الرأى عند الهنود أن المرأة التى ارتبطت بالزواج من الرجل يجب أن تحافظ على هذا الرباط المقدس على الدوام؛ سواء فى هذا العالم، أو فى العالم الآخر، وأن يمتزج رمادها برماده فى اليوم الذى يحرق فيه جثمانه على المحرقة، واعتبروا ذلك نوعا من أعمال البطولة التى تغنى بها شعراؤهم، بيد أن هذا العمل يفقد روعته، وجلاله إذا أدركنا أنه بمثابة تعبير مادى للعبودية التى فرضها الرجل، والمجتمع الهندى على المرأة باسم الدين..

وترجع عادة «سونى» هذه إلى الألف الثانية قبل الميلاد؛ فقد ظهرت فى الشعوب الآرية فى شمال الهند، ويرجعونها إلى عادة تقديم القرابين البشرية، وقد أيدت كتب الديانة الهندية القديمة «الفيدا Veda» هذه العادة، ولكنها وضعت حلا للحد منها هو إذا رقدت المرأة فوق المحرقة إلى جانب جثمان زوجها، وجاء رجل آخر وأخذها من يدها فى آخر لحظة؛ فإنها فى هذه الحالة تكون ملزمة

obeikandi.com

بالاعتراف به زوجا ثانيا لها، وتعود معه إلى عالم الأحياء، وظلت هذه العادة تمارس حتى عام ١٨٢٩م عندما حرمها اللورد «وليم بنتنك William Bentinck» حاكم الهند العام على الرغم من المعارضة الشديدة للكهنة..

المرأة اليونانية:

كان الجوارى سببا فى اضطهاد المرأة الإغريقية لكونهن من أملاك الرجل الخاصة، فيتمتع هو بكل جواريه بينما تقتصر علاقة المرأة على زوجها فقط، ومن هنا حرص الرجل على تضييق الخناق علي زوجته بمراقبتها، بل ومنعها من الخروج إلا بمحرم، أو حارس حتى استخدم الإغريق كلاب الحراسة فى هذا الشأن..

ومن هنا اختفت المرأة فى اليونان القديمة من الحياة العامة؛ إذ كانت شئون السياسة وقفا على الرجال وحدهم، ولم تكن المرأة فى منزلها تستأثر بحب زوجها، فقد كانت موضع احترام زوجها، وتبجيله، ولكنها لم تستحوذ على اهتمامه، ولم يهتم بهن الأزواج قدر اهتمامهم بعبيدهم، وإمائهم، أما المرأة التى كانت تستأثر بعواطف الرجل، وتجذبه نحوها فهى تلك التى كانت تنتسب لطائفة «الهيتريا Hetairae» وهن الغانيات المحترفات لفن الحب، خاصة إذا كان الرجل من أصحاب المواهب الرفيعة..

إن أساطير الآلهة، والأبطال عند اليونانيين القدماء كلها تدور حول المرأة؛ فالحروب كانت تشن بسبب الحب، أو للثأر من الخيانة الزوجية..

وكان اليونانيون القدماء يرون أن الجمال المثالى يتمثل فى الجسد العارى للرجل ذى البنية القوية، الرشيق القوام، المفتول العضلات، ويرون أن حب المرأة إذا امتد إلى أكثر من الرغبة الجنسية يعتبر جنونا، وسفها، وأن نشوة الفؤاد التى نعبر عنها اليوم بوجه عام باسم الحب الرومانتيكى لا تتعدى جنس الرجال، أى الذكر وحده لا غير..

وليس من شك أن الاتصال الجنسى بالغلمان كان أمرا شائعا فى بلاد اليونان فى العصور القديمة، فقد كانوا يعتقدون أن الغرام بالجنس المماثل يؤدى إلى تقوية الذهن، والبدن معا، ويقول البعض - ومنهم أرسطو - أن السبب فى هذه العادة خوف اليونانين من زيادة عدد السكان، والواقع أن الرجال

obeikandl.com

الذين كانوا يعيشون فى المعسكرات، والذين يحاربون جنبا إلى جنب لم تكن لديهم الفرصة للتنفيس عن رغباتهم الجنسية إلا مع الرجال..

ولعل أقدم إشارة وصلت إلينا عن عشق الجنس المماثل Homosexuality يرجع تاريخها إلى ما يقرب من ٤٥٠٠ سنة مضت فى بردية من برديات قدماء المصريين الذين كانوا على اتصال وثيق بالإغريق، فكان عشق الغلمان شائعا بين آلهة العصور القديمة؛ فنجد مثلا أن «جوبيتر» كبير الآلهة اليونانيين يقع فى غرام غلام راع جميل هو «جانيميد» على الرغم من تعدد علاقاته النسائية، حتى إنه أحضره إلى جبل أوليمب ليكون ساقى الآلهة، وكان «نبتيون» إله البحر يعشق غلاما يدعى «بيلوبس «Pelops، و»أبوللو» إله الشعر يعشق «هياكينثس Hyacinthos»، وإله الغاب يعشق «سيباريسوس «Cyparissus وهكذا..

وكانت هناك ظاهرة أخرى هى التعلق الشديد، والإعجاب البالغ بنهود المرأة، ذلك التعلق الذى بلغ حد العبادة، والذى بدا واضحا فى أشعارهم، وتماثيلهم، وآثارهم الأدبية، وكان «ننوس «Nannus وهو من شعراء الملاحم يطلق على التفاحتين الصغيرتين النابتتين على صدر المرأة اسم سهام الحب..

المرأة الرومانية:

كان شيشرون(أحد أعلام الفكر الفلسفى الذى طرأ على الرومان بعد احتكاكهم باليونانيين) هو أول من حدد الكائنات الإنسانية، أو الحيوانية بأنها الذكر، والأنثى، وجاء المؤرخ «بلينوس Pliny» ليطلق تعبيره المشهور «الجنس الضعيف «Sexus infirmus، وحدد جنسا ثالثا هم «المخنثون»، أما الشذوذ الجنسى فقد كان الرومان يأنفون منه، ويفرضون عقوبة على من يمارس الشذوذ، وكانوا يطلقون عليه «العادة اليونانية»، ولكن البلاط الرومانى فى أواخر عهد الإمبرطورية خاصة عهد الإمبراطور «هارديان» قد تلوث بالعادة اليونانية الرذيلة؛ وهى عشق الجنس المماثل، أو «اللواط Homosexual « حتى إن بعض النسوة كن يعرضن أولادهن فى الطرقات فى ملابس، وحلى النساء إغراء للمريدين..

ولعل أهم النتائج التى ترتبت على حركة التوسع الرومانى فى ربوع أوروبا؛ انتشار نظام الزواج المفرد الذى لا يزال سائدا حتى الوقت الحاضر، وهناك كثير من الشواهد، والروايات تدلنا على

التقدير الأدبى السامى للمرأة، ودورها فى الحياة الرومانية فقد أنشئ فى روما معبد يسمى «فينوس كلفا Venus calva» تمجيدا لنساء روما اللواتى قصصن جدائل شعورهن الطويلة عندما حانت ساعة الخطر ليصنعن منها أوتارا لأقواس الجنود، كما أنشئ معبد آخر لذكرى العطف البنوى لتلك المرأة التى كانت تذهب لزيارة أمها التى حكم عليها بالموت جوعا فى السجن، واتضح أنها كانت تغذيها بلبن ثدييها..

وعلى الرغم من ذلك فقد كان مركز المرأة الرومانية دون الرجل داخل الأسرة، إذ كانت السلطة المطلقة للرجل، ولم يكن لها سلطة على الأولاد، وكان فى استطاعته أن يطلق زوجته عندما يريد ذلك، أو حتى يحكم عليها بالموت، وكان القانون يؤيد الرأى العام فى الحفاظ على العفة، والكرامة، والشرف لكل من الرجل، والمرأة حتى إن مجلس الشيوخ وبخ أحد أعضائه لأنه قبل زوجته فى حضرة بناته، ووبخ آخر عندما وقع عليه اعتداء فى بيت من بيوت الدعارة، وكانت المرأة المتزوجة تباشر كل ما فى البيت بنفسها، وكان من العار أن تعهد بوليدها إلى المرضعات، وكان يرمز للزواج بأنه زمالة العمر كله، وظلت روما بلا طلاق مدة قدرها خمسمائة وعشرون سنة..

أقر الرومان نوعين مختلفين من الزواج؛ الأول كان أكثر تشريفا للمرأة فى نظر القانون، حيث تصبح المرأة بمقتضاه تحت سلطان زوجها المطلق بالنسبة لشخصها، وبالنسبة لثروتها، وكان يتم عقده وفقا لطقوس دينية خاصة تتسم بالروعة، والمهابة، ويقتصر على طبقة النبلاء، ويسمى «Conferreatio»، أما النوع الثانى فقد ترك للمرأة مركزها المرعى دون تغيير وعرف باسم «Coemptio» وهو نوع من الزواج المدنى اشتق اسمه من نظام البيع المعروف، أو ربما يتم بمجرد معاشرة رجل لامرأة معاشرة الأزواج لمدة سنة دون انقطاع، وعرف باسم «Vesus» إذا لم يستردها الأب خلال ثلاثة أيام، ولم تكن المرأة ترتاح عادة لهذا الاسترداد..

وفى عهد الإمبراطورية حل مكانهما نوع بسيط من الزواج يقوم على الاتفاق المتبادل بين الرجل، والمرأة دون أى احتفال دينى، أو مدنى، حيث تظل المرأة بحكم القانون فى بيت أبيها، وتحت رعايته، وليست تحت سلطان زوجها، وكان للزوجة إذ ذلك استقلالها الشرعى، والاحتفاظ بملكها الخاص، كما ترث نصيبها من تركة أبيها، وبهذا انتقل جزء كبير من ثروة الرومان إلى حوزة النساء، ويقال إن النساء كن يقرضن أزواجهن المال فى بعض الأحيان بفائدة مرتفعة؛ الأمر الذى كان موضع تهكم، وسخرية بعض الكتاب، وأولى الرأى، ولما كان هذا العقد مدنيا، وقد أبرم لإسعاد الطرفين فقد كان

من حق أى الطرفين إلغاؤه وقتما يشاء، ومن حقه التزوج مرة أخرى، فكان كثير من هذه الزيجات يلغى لأتفه الأسباب حتى على مستوى عِلية القوم، أو حتى دون إبداء أى سبب..

ولا يتم الزواج فى روما إلا بين أفراد الطبقة الواحدة، فقد حرم القانون الرومانى المكتوب(اللوحات الاثنتى عشرة ٤٥٧ - ٤٤٩ ق.م) الزواج ما بين الأشراف Particians وعامة الشعب Alebians ولكن سرعان ما خرج الناس على هذا القانون، وكان ذلك لحادثة حب وقعت بين رجل من الأشراف يدعى «أبيوس كلوديوسAppius Claudius» وبين فتاة جميلة من عامة الشعب تدعى «فرجينية»، رغب أن يتخذها عشيقة على الرغم من أنها كانت مخطوبة لأحد عمال الدولة، فما كان من أمر الأب محافظة على شرف أسرته أن طعن ابنته فأرداها قتيلة، وذلك فى الساحة الرئيسية بروما Forum الأمر الذى أدى إلى ثورة الجيش لإجبار الأشراف على قبول مبدأ التزاوج بين طبقة الأشراف، وعامة الشعب..

المرأة المسيحية:

بعد أن اعتاد الرومان أن يكونوا هم واضعى القوانين، والتشريعات لكل العالم، وجدوا أنفسهم أمام فئة من المبشرين، والوعاظ من المشرق ينادون فيهم بمبادئ خلقية جديدة، فقاوموها بادئ الأمر فى جميع الولايات الرومانية، ثم تغاضوا عنها، واتبعوها فى النهاية، وكانت المبادئ، والتعليمات تقضى بألا يكون انصراف الناس كلية إلى الملاذ الدنيوية؛ بل عليهم التفكير فى الحياة الآخرة بعد الممات، فالإنسان ليس جسدا فقط، وليست له الدنيا دون الآخرة، وأن الزواج رابطة مقدسة بين الرجل، والمرأة لا تنفصم مدى الحياة، والطلاق إثم، وزواج أحد الطرفين فى حياة الآخر مرة أخرى هو فسق، وفجور لا يمكن التكفير عنه..

قدمت الدولة الرومانية خدمات جليلة فى سبيل نشر التعاليم المسيحية الداعية إلى العفة، والطهارة فأصدر الأباطرة المسيحيون التشريعات اللازمة لذلك، واتخذت إجراءات لتتواءم مع التشريعات الكنسية، فكانت تحكم على القوادين بأن يذاب الرصاص، ويصب فى حلوقهم، وكانت تحكم بالموت على الرجل الذى يغتصب امرأة كرها، ويحكم عليها هى أيضا بالموت إذا ثبت أنها استسلمت له، كما أصدرت قانونا يوجب تخلى الفنانات، والممثلات عن مهنتهن بعد التعميد إذ اعتبرت الكنيسة

obeikandl.com

هذه المهنة ستارا يخفى وراءه الكثير من أعمال الفسق، والفجور كان من أثر ذلك أن اجتذبت الناس حياة العذرية، والزهد فى الزواج، واشتهر قول القديس جيروم إن قطع شجرة الزواج بفأس العذرية هو نهاية ما يبغيه القديس، وإن كان قد سمح بالزواج فذلك فقط لإنتاج العذارى..

وغالى رجال الدين المسيحى فى تفضيل العذرية على الحياة الزوجية مدعين أن شهوة الرجل للمرأة شهوة بهيمية تستدرك الجسد كله فتتغلغل فى أعماق النفس، وتختلط فيها الانفعالات العقلية المشوشة فيفكر فى أشياء دنيوية لإرضاء المرأة، هذا على الرغم من انغماس أغلب هؤلاء الدعاة إلى هذه الأفكار فى شبابهم فى حياة الفسق، والفجور..

فالقديس أغسطين(٣٥٤-٤٣٠ق.م) اعترف أنه عندما ذهب إلى قرطاجنة للدرس، والتحصيل اتخذ له محظية أنجب منها ولدا، وقد قال القديس جون كريسوستون St-John Crysoston عن المرأة إنها شر لا بد منه، وهى إغراء طبيعى، ووزر مرغوب فيه، وسحر مميت، وسوء مزركش بالألوان..

بيد أن الفكرة التى أشاعتها الكنيسة عن عدم طهارة الزواج قد استشرت فى النفوس، فقد جرت العادة على الإحجام عن فراش الزوجية ليلة الزفاف تمجيدا للعشاء الربانى، والنص الصريح على أنه لا يجوز للمتزوجين الذين تلامسوا فى الليلة السابقة للاحتفالات الكبيرة بالكنيسة عدم حضورهما حتى إن القساوسة المتزوجين كان عليهم أن يمتنعوا عن مضاجعة زوجاتهم بعد الرسامة..

وقد أفاض كتاب العصور الوسطى فى ذكر أديرة للراهبات كانت أشبه بالمواخير، وبكثرة المواليد الذين قتلوا داخل أسوار هذه الأديرة، ودفنوا حولها، وتفشت جريمة غشيان المحارم بين رجال الكنيسة، الأمر الذى أدى إلى إصدار القوانين المشددة التى تحول بين القساوسة، والعيش مع أمهاتهم، وأخواتهم، كذلك شاع اللواط بين رهبان الأديرة، وكانت الشكوى عامة من القساوسة الذين يتزوجون سرا، أو يتصلون بأزواجهم بعد الرسامة لدرجة جعلت الكنيسة تفرض تابعا للقسيس من الرجال ينام معه، ومنع مقابلتهم لزوجاتهم إلا فى أماكن مفتوحة، وفى حضور شاهدين على الأقل..

وانعكس هذا الاتجاه على الحياة العامة فكلٌ يريد أن يتصف بالشرف، والفضيلة فى حين أن نزاعاتهم الغريزية كانت أقوى، فتفشت فى المجتمع قيم الرياء، والمواربة، والختل، والخداع، والظهور بمظهر الولاء، والإخلاص؛ فأصبحت الخيانة الزوجية من الفضائل التى يحرص عليها المواطنون، سواء رجالا، أو نساء خاصة بين الطبقات العليا من المجتمع، وتدور على ألسنتهم فى مجتمعاتهم المقفلة بشىء من الزهو، والانتصار، بل لا يعتبر فارسا من لم يغرِ كمًا كبيرا من الزوجات بالفسق، والفجور،

فاستباحوا حرمة البيوت باسم الفروسية، والشهامة، والدفاع عن البؤساء، والمظلومين حتى ألبسوها طابعا دينيا يستجدى فيه الفارس السيدة العذراء كى ترعى هذه العلاقة..

وإزاء هذا الاضطراب الخلقى، والفوضى الأخلاقية لجأ رجال الطبقة الوسطى من رجال الأعمال، والتجار، والذين اقتضت أعمالهم السفر أياما قد تطول، أو تقصر إلى وسيلة تحافظ على نسائهم من جريمة الزنا، وكانت هذه الوسيلة عبارة عن حزام من هيكل معدنى فى اتساع راحة اليد يلبس حول عضو المرأة، ولا يترك لها غير ثقب صغير يسمح لها فقط بقضاء حاجتها، وكان هذا الحزام يقفل عند أعلى الفخد بقفل متين يحتفظ الزوج بمفتاحه، وترجع هذه الوسيلة تاريخيا إلى «هوميروس» شاعر الأوديسة التى وصف فيها أفروديت إلهة الجمال؛ وقد خانت زوجها «هيفايوستوس -Hephaios tos» مع أخيه «آرس «Ares، فعمد زوجها إلى صنع حزام العفة هذا ليحول بينها، وبين ذلك غير أن اليونانيين أنفسهم لم يلجأوا لهذه الوسيلة؛ بل إن أول من استخدمها رجال فلورنسا بعد ظهور الأوديسة بألفين من السنين حيث اشتهرت زوجاتهم بالانحلال الزوجى؛ حتى عم استخدامها فى أوروبا خلال القرنين الخامس، والسادس عشر تحت اسم «حزام فينوس»، أو «حزام فلورنسا» حتى إن المرأة التى لم تكن ترتدى الحزام تعتبر مستباحة لأى طارق..

وقد ساعدت الحروب الصليبية التى ابتدعتها أوروبا على تفاقم هذه السلوكيات المتردية، فأدى ابتعاد الرجال عن زوجاتهم مددا طويلة إلى انتشار البغاء، والدعارة المقننة التى تغاضى عنها المجتمع، والدولة، ورجال الكنيسة، حتى أحصى فرسان الداوية Templars(وهى الطائفة التى كان منوطا بها حصر المحاربين الصليبيين) فى سنة من السنين ثلاثة عشر ألف بغى صحبن هذه الحملات..

المرأة العربية:

تمتعت المرأة العربية فى الجاهلية بقدر كبير من الحرية، والاختلاط بالرجال، ومشاركتهم فى نواحى النشاط الاجتماعى، كما كان العرب فى العصر الجاهلى يؤثرون القرابة عن طريق النساء، فالمرأة بعد زواجها لا تصبح من عشيرة زوجها؛ بل تظل فردا من أفراد عشيرتها الخاصة، وينتقل زوجها للعيش معها فى عشيرتها؛ بل كان لها أيضا الحق فى تطليق زوجها، كما كان لها الحق فى اختياره، فقد ذكر الأصفهانى فى كتابه «الأغانى»:

-«وكان النساء، أو بعضهن يطلق الرجال فى الجاهلية»..

كان الزواج بكافة صوره القديمة شائعا فى العرب، بل كان هو النظام المتعارف عليه فى علاقة الرجل بالمرأة، ولم يكن هناك تفريق فى طرق الزواج سواء كان راقيا، أو مشينا، اللهم إلا العلاقة الجنسية تعبر عن نفسها فى أى صورة من الصور، ولذا لم يقف فى سبيل الزواج لدى العرب أي موانع، أو حدود من سن، أو غيره، المهم مقدار الكفاءة، والنسب، فالسيد لا يتزوج إلا سيدة، والعبد لا يتزوج إلا أمة، ولم يكن الزواج لديهم يحتاج إلى شهود، أو عقد مع أهل الزوجة، أو وليها، فطالب الزواج يفرض نفسه على المرأة التى يرغب فيها بقوله:

-«خطب».. بمعنى أنى أخطبك..فترد عليه المرأة بقولها:

-«نكح».. بمعنى الموافقة على طلبه الزواج منها..

كان للعائلة الواحدة باليمن أرض واحدة يمتلكونها على المشاع، وبينهم أيضا زوجة واحدة للجميع، فكان الرجل منهم يخلو بها تاركا عصاه بالباب، دليلا على وجوده معها، أما الليل فتقضيه مع الأكبر سنا، وهو رئيسهم، وصاحب الكلمة العليا بينهم، وكانوا يأتون أمهاتهم، أما الزانى فكان يطلق على من يتزوج من خارج القبيلة، وعقابه القتل..

جاء فى حديث السيدة عائشة رضى الله عنها الذى رواه البخارى؛ مايدل على زواج المشاركة، وكان يسمى «نكاح الرهط»؛ وهو أن يجتمع الرجال دون العشر فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت، ووضعت أرسلت إليهم فلا يستطيع أحدهم أن يمتنع، فإذا جاءوها قالت لهم:

-«قد عرفتم الذى من أمركم، وقد ولدتُ فهو ابنك يافلان»..

فتسمى من أحبت باسمه، ويلحق به ولدها دون اعتراض منه..

وعرف العرب الجاهليون نوعا آخر من النكاح هو «نكاح الاستبضاع»؛ فكان الرجل يقول لزوجته إذا طهرت من طمثها:

-«أرسلي إلي فلان فاستبضعي منه»..

ثم يعتزلها، ولا يمسها حتي يتبين حملها من الرجل الذي استبضعت منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أراد، الزوج يفعل ذلك رغبة منه في نجابة الولد اعتقادا منهم أن العظيم يأتي بعظيم مثله، ولا يكون المولود في هذه الحالة من حق العظيم الذي جاء من صلبه؛ بل يكون ابنا للزوج الشرعي الذي أمر بالاستبضاع، وهذا النوع أيضا يعتبر نوعا من زواج المشاركة لدي العرب الجاهليين ...

وليس هناك من الأدلة ما يؤيد أن زواج المشاركة كان نظاما عاما في كل القبائل العربية؛ بل لعله كان مقصورا علي بعض القبائل التي كانت تمارس عادة وأد البنات؛ والتي قيل إن سيد بني تميم «قيس بن عاصم» ابتدعها حين أقسم ليئدن كل بنت ولدت له، لأن ابنته اختارت صاحبها الذي سباها علي العودة إلي زوجها، وأهلها، فقد تكون هذه العادة منقولة إلي العرب من الشعوب المجاورة كالفرس الذين كانوا يمارسون نوعا من الإباحية الجنسية في عهد الساسانيين قبل ظهور الإسلام، ولم يكن الوأد منتشرا بين قبائل العرب، وإنما كان من العادات الرذيلة التي كان يمارسها بعض العرب..

كانت مكة مركزا لبيع السبى من مختلف البقاع، والأجناس؛ فراج لدي العرب زواج الأسر، حيث يتزوج الآسر من سبيته، ولم يكن في هذا الزواج أى دليل علي الإذلال، والعبودية، بل كان ضربا من الشهامة، والفروسية، فقد كان العرب يعتقدون أن أبناء السبايا من خيرة الأبناء، وكان الأسري في الجاهلية يعتبرون ملكا لليمين، وكان يطلق علي السبية اسم «النزيعة» أي المرأة التي انتزعت من أهلها، كما يطلقون علي ولدها اسم «النزيع»..

كان الزواج بالشراء هو أكثر أنواع الزواج انتشارا في العرب الجاهليين، إذ كان ينظر إلي الفتاة علي أنها سلعة تزيد من ثروة أبيها، وكان المهر هو ثمن الشراء الذي يدفعه الرجل لأهل المرأة تعويضا لهم عن فقدها إياها بزواجه منها، وهو بذلك تكون له السيادة المطلقة عليها، وحق الطلاق إذا أراد، أما زواج الصداق، أو الصديقة كانت المرأة تزوج نفسها عن حرية، وطيب خاطر، كما كان لها الحق في تطليق نفسها إذا شاءت، وكان الصداق يقدم من الرجل للمرأة هبة لها، ولا يكون صاحب السلطان المطلق عليها، بل يكونان علي قدم المساواة معا..

واشتهر بين العرب زواج المبادلة، وزواج الشغار وذلك بأن يزوج الرجل ابنته، أو أخته علي أن يزوجه الآخر ابنته، أو أخته، فهو يقوم علي المبادلة في القيمة دون صداق متفق عليه، وظل العرب يمارسون هذا النوع من الزواج في الجاهلية حتي جاء الإسلام فحرمه، فقد جاء في «صحيح البخاري»: -«نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زواج الشغار»..

وكان هناك نوع آخر من الزواج سائدا لدي العرب هو زواج الميراث، أو العضال، وذلك عندما يموت أبو الرجل، أو أخوه، أو ابنه، ويترك امرأة فإن سبق الوارث فألقي عليها ثوبه فهو أحق بالزواج منها بمهر المتوفي، أو يزوجها من أراد ليأخذ هو مهرها، أما إن سبقته فذهبت إلي أهلها فلا يستطيع

عضالها، وقد جاء القرآن بتحريم هذا الزواج في الآية:

-«يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن» النساء(١٩)..

ولم ينفرد العرب بهذا النوع من الزواج؛ بل كان شائعا في كثير من شعوب العالم بحيث كان الزواج يعد فرضا محتوما في بعض الجماعات، والشعوب بحيث إذا رفض الوارث أن يتزوج من أرملة المتوفي؛ وجب عليه أن يقيم نفسه واليا عليها، وكانت عادة طرح الثوب لميراث الزوجة من العادات السامية القديمة، وكانت المرأة تسمي عندهم باللباس، أو الإزار، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة:

-«هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» البقرة(١٨٧)..

وكانت أردأ صور الزواج الذي أطلقوا عليه زواج المقت، وهو أن يتزوج الولد زوجة أبيه المتوفي، أو المطلقة منه بنفس الطريقة، وسمي المولود منه مقتي، فأبطل الإسلام هذا الزواج بقوله تعالي:

-«ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا» النساء(٢٢)..

وأخيرا زواج المتعة؛ وهو تزويج المرأة إلي أجل بعقد محدد المدة، وتعاشر معاشرة الأزواج، حتي إذا انقضت المدة وقعت الفرقة، ومن الممكن أن تظل الزوجة في بيت أهلها، وتتردد علي زوجها من حين لآخر، ويصرفها حين يطيب له، وكانوا يلجأون لهذا النوع من الزواج عندما يكونون بعيدين عن الوطن في سفر، أو تجارة، أو غزوة..

ورغم هذه الصور المتعددة، والشاذة من الزواج كان هناك الزواج المتعارف عليه اليوم، وهو النوع الذي أقره، ودعمه الإسلام، فكان يقوم علي الرضا، والقبول بين الطرفين سواء الزوج، والزوجة، أو الأهل، فكانت المرأة تخطب من وليها على الصداق المسمى بينه وبين طالب الزواج، ثم يقوم بالعقد عليها، وكانت الفتاة التي بلغت سن المراهقة الشغل الشاغل لوالديها، أو لوليها حتي يزوجها من الرجل الكفء الذي يصلح لها، وكان العرب يميلون إلي زواج الأباعد دون الأقارب الذي يرونه مضرا بخلق الولد ونجابته، كما كانوا يصهرون للألفة بين القبائل، أو استئناس الأعداء، وتقوية الصداقة، وكانوا يرغبون في النكاح لطلب الولد، فيلتمسون لذلك الحداثة، والبكارة في المرأة..

المرأة في العصر الإسلامي:

أحدث الإسلام ثورة كبيرة في مركز المرأة الاجتماعي، ومن الممكن القول إن تعريف البشرية قبل الإسلام هو الرجل فقط، والرجل ليس إلا، ليصبح التعريف بعد الإسلام هو رجل، وامرأة، فاقترنت المرأة بالرجل في كل الحقوق التي له، وفي الواجبات، والتبعات التي عليه، يقول القرآن الكريم:

-«وما خلق الذكر والأنثي(٣) إن سعيكم لشتي(٤)» الليل..

بل إن كتاب الإسلام الأول وهو القرآن قد اشتمل على سور تتعلق بالمرأة، والأحكام الخاصة بها، حتي العنوان، والاسم قد تسمت بها؛ كسورة «النساء»، و«مريم»، واقترنت فى سورة أخرى(النمل) بنبى من أنبياء الله(ملكة سبأ، وسليمان عليه السلام)، ورغم اشتمال القرآن علي آيات شتي تتعلق بالمرأة، وبشخصيات كثيرة إلا أنه لم يذكر أي اسم لامرأة إلا السيدة مريم صيانة لها، وحرصا علي خصوصيتها، واعتبارها حرما مقدسا لا ينبغي الإباحة باسمه دون داع، هذا عدا أن بعضهن كن رواة ثقات للأحاديث النبوية، وقد حضت هذه الأحاديث، والسيرة النبوية علي الاقتران بالمرأة، وعدم الاستخفاف بها، أو جعلها متاعا من الأمتعة الدنيوية فيقول النبى صلى الله عليه وسلم:

-«من أحب أن يكون علي فطرتي فليستن بسنتي، فإن من سنتي النكاح».. وقال أيضا:

-«حُبب إلي الطِيب، والنساء»..

وكان الزواج هو الطريق القويم للاقتران بالمرأة؛ فوضع له القواعد السليمة، والدقيقة للدخول فيه، والخروج منه، وحق، وواجب كل من الزوجين تجاه الآخر، والمحرمات من النساء، وطرق التوريث، ورسم لها حياتها الاجتماعية، وما يجب فعله، وما يجب الامتناع عنه، ومن بعد ذلك أطلق للرجل حرية الزواج فقال تعالي:

-«والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات» النحل(٧٢).. كما قال أيضا:

-«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة» الروم(٢١)..

كما أحل الاستمتاع بهن للتنفيث عن أقوي الغرائز الإنسانية التي جعلها الله للحفاظ علي البشر فقال تعالي:

obeikandi.com

-«نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أني شئتم» البقرة(٢٢٣)..

والتعبير بكلمة الحرث؛ وهو اصطلاح زراعي يعني إعداد الأرض للزراعة، ويقوم به الإنسان وقتما يشاء..

وليس أدل علي سهولة هذا الأمر في صدر الإسلام لدي المسلمين الذين عرفوا الإسلام، وما يريد منهم، وبهم ما رواه الإمام الغزالي فى كتابه «إحياء علوم الدين» عن عبد الله بن أبي وداعة أحد تلاميذ سعيد بن المسيب الذي تفقده يوما فلم يجده، حتى حضر مجلسه مرة أخري سأله:

- أين كنت؟.. قال:

- توفيت أهلي فأشغلت بها..فقال سعيد:

- هلا أخبرتنا فشهدناها؟.. فسكت عبد الله، وأراد أن يقوم فسأله سعيد:

- هل استحدثت امرأة؟..قال عبدالله:

يرحمك الله، ومن يزوجني، وما أملك إلا درهمين، أو ثلاثة؟!..

فقال سعيد:

- أنـــــــــا.. فرد عليه:

- وتفعل؟!.. قـــــــــال:

- نـــعم..قال عبد الله:

- فحمد الله تعالي، وصلي علي النبى صلى الله عليه وسلم، وزوجني علي درهمين، فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فعدت إلي منزلي، فأسرجت، وكنت صائما فقدمت عشائي لأفطر، وكان خبزا، وزيتا، وإذا بابي يُقرع فقلت:

- من هذا؟!.. فرد من وراء الباب:

- سعيد.. يقول عبد الله:

- فكرت في كل إنسان أعرفه اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، وذلك أنه لم يُر أربعين سنة إلا بين داره، والمسجد؛ فخرجت إليه فإذا هو سعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له(رجع عن رأيه).. فقلت له:

- يا أبا محمد لو أرسلت إليّ لأتيتك!.. فقال سعيد:

- لا؛ أنت أحق أن تؤتي!.. قال عبد الله:

obeikandi.com

- فما تأمر؟.. قال سعيد:

- إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت، فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك!.. وهذه امرأتك، وإذا هي بنت سعيد بن المسيب قائمة خلفه في طوله، فدفعها في الباب ورده، ومضي..قال عبد الله:

- ثم دخلت بها فإذا هي من أجمل النساء، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسوله صلي الله عليه وسلم، وأعرفهم بحق الزوج!..

وكانت ابنته هذه قد خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد؛ فأبي سعيد أن يزوجها إياه..

هكذا كانت البساطة، لا تعقيد، ولا مساومة، ولا إبطاء، كما لم يسأل الزوج عن مالها، وجمالها، إنما أراد الزواج ليعصم نفسه من زلة قد يقع فيها، أو كبت لا يقوي علي احتماله، ويغير مبادئه، وأخلاقه، وقد تمثل هؤلاء الصفوة قول الرسول الكريم عملا، وليس قولا حيث قال صلي الله عليه وسلم:

-«من تزوج امرأة لعزها؛ لم يزده الله إلا ذلا، ومن تزوجها لمالها؛ لم يزده الله إلا فقرا، ومن تزوجها لحبها؛ لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوجها لم يرد بها إلا أن يغض بصره، ويحصن نفسه؛ بارك الله له فيها، وبارك لها فيه»..

نظم الإسلام الزواج تنظيما دقيقا، وحدد له مقدمة، ونهاية؛ فشرع الخطبة، وهي أن يري الخاطب خطيبته قبل الزواج، ويستمع إلي حديثها، بأن يجلس إليها في وجود الأهل، والأقارب، فقد خطب المغيرة بن شعبة امرأة فقال له رسول الله صلي الله عليه وسلم:

-«أنظرت إليها؟».. قال:

-«لا»، قال:

-«انظر إليها فإنه أحري أن يؤدم بينكما»..

بمعني أن تتوثق بينكما الألفة، والموافقة..

ولم يعط الإسلام هذا الحق للرجل فقط؛ بل هو أيضا للمرأة، فأمرت الشريعة وليها أن يأخذ رأيها، ورأي أمها التي هي أدرى الناس بأحوالها، فقد قال رسول الله صلي الله عليه وسلم:

-«لا تنكح الأيم حتي تستشار، ولا البكر حتي تستأذن»..

وعندما حدث في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم أن فتاة تزوجت بغير رضاها؛ وراحت تشكو إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، ففسخ الرسول زواجها، تاركا لها حرية الاختيار..

وفي الزواج يجب علي الزوجة أن تلبي رغبات زوجها كلما أراد، في مقابل أن يتحمل هو أعباء الأسرة، وهذا صيانة للرجل، والمرأة معا، وإذا لم تلب ذلك تعتبر ناشزا، بقول النبي صلي الله عليه وسلم:

-«ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رءوسهم – أي لا يقبلها الله – منهم امرأة باتت وزوجها عليها غضبان»..

وهو ما يودي باستقرار البيت، ودوام العشرة..

كما لفت التشريع الإسلامي الأنظار إلي المظهر الحسن، والرائحة الطيبة لكل من الرجل، والمرأة، يقول الرسول الكريم:

-«لا يقعن أحدكم علي امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينهما رسول»..

قالوا:- وما الرسول.. قال:

-«القبلة، الكلام «..

ولا يبيح للرجل أن يهجر فراش الزوجية إلا لعقاب زوجته حال النشوز، يقول تعالي:

-«واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا» النساء(٣٤)..

وعلي المرأة أن تطلب الطلاق إذا عرض للرجل مرض، أو ضعف يقعده عن مباشرة زوجته؛ حتي لا يؤدي بها الحرمان إلي الفسق، والانحراف، والخيانات الزوجية التي تنعكس علي أهل الزوج، وأهلها، وأولادها - إن كان لها أولاد - وجعل لها الخلع إذا كرهته، أو كرهت عشرته بأن ترد عليه مهره، وصداقها..

ومن حق المرأة ألا يغيب زوجها طويلا حتي لو كان للجهاد في سبيل الله، يروي أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يمر في طرقات المدينة ليلا، فسمع زوجة غاب عنها زوجها في إحدى حروب الفتوح تتغني بشعر تعبر فيه عن شوقها لزوجها، وإحساسها بوطئة الغريزة، ولولا خشية الله لسلكت سبيل الفساد فتقول في شعرها:

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وأرقني أن لا خليل ألاعـــــبه

فو الله لولا الله تُخشي عواقبه ... لحرك من هذا السريـر جوانـبه

مخافة ربي والحـياء يصدني ... وأخشي لبعلي أن تُنال مراتبــه

obeikandl.com

فانزعج عمر لهذا الشعر، وهرول إلي الدار يسأل ابنته حفصة، كم تصبر المرأة علي زوجها؟..

فأجابته: تصبر شهرين، وفي الثالث يقل صبرها، وفي الرابع يُفقد صبرها..

فأرسل الخليفة إلي قواده في جبهات القتال؛ يأمرهم ألا يحبسوا رجلا عن امرأته أكثر من أربعة شهور..

كما أبطل الإسلام ما كان يفعله الجاهليون من القسم بألا يقرب زوجته علي الدوام، أو لمدة قد تزيد علي أربعة أشهر، وكانوا يعتبرونه طلاقا بائنا، لا رجعة فيه، لم يعتبره الإسلام طلاقا، بل يُمهل الزوج أربعة أشهر، فإن لم يستأنف اتصاله بزوجته يُطالب بطلاقها، فإن لم يفعل تُطلق علي يد القاضي، وهو ما يُعرف في الفقه الإسلامي «بالإيلاء»، قال تعالي:

-«للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم(٢٢٦) وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم(٢٢٧)» البقرة..

كما ألغي الإسلام الظهار وقت الغضب بأن يقول الرجل لزوجته؛ أنت علي كظهر أمي، أو أختي، أو عمتي، أو خالتي، وكان عند العرب طلاق لا رجعة فيه، يقول تعالي:

-«الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور» المجادلة(٢)..

وهو بذلك ينفي أن يكون وضع الزوجة كوضع محارمه، وهكذا نجد أن الإسلام قد أبعد الزواج عن كل الأوضاع الشكلية التي تجعله في مهب الأهواء، والنزعات لتؤدي به في النهاية إلي الفصام..

كفل الدين الإسلامي زوجة واحدة للرجل منذ بداية الخلق يقول تعالي: --«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء» النساء(١)..

-«هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها» الأعراف(١٨٩)..

ولكن بعد تكاثر الناس، واستعمار الدنيا بالبشر شاع استئثار الرجل بأكثر من امرأة..

وكثر التعدد، وشاع في كل الأمم، والبيئات، ومنها بلاد العرب التي يقال إن بيوتها لم يكن ينقص فيها الزوجات عن عشرة؛ بل كانت الشريعة اليهودية تبيح التعدد، وكثير من أنبياء بني إسرائيل كان لهم أكثر من زوجة كالنبي داوود، والنبي سليمان عليهما السلام، وكانت المسيحية بدورها تبيح تعدد الزوجات، ولا تنكره حتي القرن السادس عشر الميلادي حيث أشار القساوسة علي المتزوجين بأكثر من واحدة أن يختاروا واحدة يُطلق عليها زوجة، وما زاد عن ذلك يطلق عليها «الخزن»، أو

obeikandi.com

«المحظية»، أو «العشيقة»..

وقد فسر علماء الاجتماع ظاهرة التعدد بطبع الرجل الذي يؤثر المرأة فتدفعه إلي الاستحواذ علي أكبر عدد منهن، ويفسر آخرون الظاهرة باتساع المدي الجنسي لدي الرجل الذي لا يحد طاقته الجنسية أي معوق، بينما الطاقة الجنسية لدي المرأة تعترضها فترات الحيض، والوضع، والنفاس، فهناك قوة فاعلة واسعة المدى لدي الرجل، أما الطرف الآخر فمحدود الاستعداد، والقابلية، ويري البعض أن الطبيعة أسخي علي الوجود بالأنثي أكثر من سخائها بالرجل، بالإضافة إلي تعرض الرجل للحروب، والمهالك التي لا تنقطع في أرجاء المكان، والزمان..

وقد جاء الإسلام بتحديد التعدد، وقصره على أربعة للضرورة:

-«وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامي فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثني وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدني ألا تعولوا» النساء(٣)..

فقيد فوضى التعدد، وقصره على أربعة فقط، مشروطا بالعدل بينهن، وهو تكريم للمرأة بأن تكون زوجة فقط للرجل المضطر للتعدد دون أن تكون محظيته، أو عشيقته..

وكان الرسول صلي الله عليه وسلم أسوة حسنة في ذلك، إذ أجاد العدل بين زوجاته في المعاملة، والنفقة، والمبيت، ولكنه لم يستطع أن يقسم حبه بينهن، فكان يقول:

-«اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك»..

وقد أعطي الإسلام رخصة لمن ملك السراري من النساء أن يعاشرهن معاشرة الزوجات لقوله تعالي:

-«والذين هم لفروجهم حافظون إلا علي أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين» المؤمنون(٦)..

وجاء القرآن بآيات كثيرة عن ملك اليمين، وقد أسرف المسلمون الأوائل فى استخدام هذا الحق، فتوسعوا في هذا الأمر حتي أن بعض الخلفاء، والأغنياء كانوا يملكون من ذلك المئات، وهو ما فتح الباب لظاهرة التسري في الإسلام، وساعد علي ذلك كثرة الحروب، والفتوحات إذ كان من حق الخليفة الأمر باسترقاق نساء، وصبيان المدن المفتوحة، هذا علاوة علي حملات الاختطاف التي كان يقوم بها تجار الرقيق علي أطراف الدولة الإسلامية، وكان عدد النساء يفوق عدد الرجال سواء من المختطفين، أو أسري الحروب ، ففي الحروب يقتل عدد من الرجال، ولا تقتل النساء، وفي الاختطاف المرأة أسهل بكثير من اختطاف الرجل، فالمرأة مقاومتها ضعيفة، واستسلامها أسهل، كما شمل الرق، والأسر

أجناسا شتى من كل مكان؛ الرومية، واليونانية، والفارسية، والتركية، والهندية، والسندية، والسودانية، والإفرنجية وغير ذلك..

راجت تجارة الرق كثيرا إبان الدولة الإسلامية؛ فأنشئت الأسواق في كل المدن، وكان حق الشراء مكفولا لمن شاء، ونشأ من ذلك التهالك علي الجنس المباح دون رادع من نفس، أو سلطان؛ فنشأ نوع من الدعارة المقننة كان لها أثرها علي المجتمع، فكان لنظام الرق الذي تنتقل فيه الأمة من سيد بالبيع، أو الشراء أن أصبحت كالبغي، أو المومس تعطي نفسها من يشتري، وكان لذلك أثر علي الزوجات سواء بالغيرة، أو الإهمال، فكان بعضهن يكتمن، ويحتملن صابرات، ولكن البعض أفلت زمامه، وأرخي لنفسه العنان مترديا في مهاوي الرذيلة، كما حدث في روما القديمة عندما كثر بها عدد الإماء، ففرض الحجاب على الزوجات اللاتى تعددن أيضا لدى الرجل(أربع زوجات)، وتشدد فيه الرجل خاصة إذا سمح لها بالخروج من المنزل بمفردها حتى لا يظن الناس فى الطرقات أنهن جوارى، وبينما كان بعض الجوارى يجدن الشعر، والغناء، والضرب على الآلات الموسيقية، وسُمح لهن بذلك فقد مُنعت الزوجات منعا من هذا، فثارت بنات الأسر الراقية، وخرجن سافرات، وطالبن بالتعليم، ومقابلة الشعراء للتغزل فيهن بعد أن استحوذ الجوارى الجميلات المثقفات على عقول رجال العرب، والمسلمين خاصة أن منهن من كن من بيوت عريقة قبل الأسر، وربما قصور وثيرة فى البلاد التى تم فتحها..

وأدي تفاقم الرق في الدولة الإسلامية بما كان يحوي من كثرة الحريم بطريقة وبائية إلي إعادة تقييم الوضع مرة أخري، مما أثر علي الأفكار الإسلامية الراقية التي انطوت علي قداسة حرية الإنسان حتى في الإيمان بالله، والكفر به، فقال تعالي لرسوله:

-«فذكر إنما أنت مذكر(٢١) لست عليهم بمسيطر(٢٢)» الغاشية..

ويقول له أيضا:

-«إنك لا تهدي من أحببت» القصص(٥٦).. ويقول معاتبا له:

-«لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين(٣) إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم له خاضعين(٤)» الشعراء.. ويقول:

-«لا إكراه في الدين» البقرة(٢٥٦)..

فقامت أحكام الشريعة علي الحرية المشروطة التي لا تقوم علي الاستغناء الذي يؤدي إلي الطغيان،

والتمادي في الأمور، فيقول تعالي:

-«كلا إن الإنسان ليطغي(٦) أن رآه استغني(٧)» العلق..

وهو من الحرية، وإطلاق العنان للغرائز، والأهواء غير المحدودة بمنطق، أو قانون؛ فالطغيان في اللغة هو خروج الشيء عن حده، كقولهم طغي الماء بمعني زاد عن الحد، فلم يعد صالحا للشرب، أو الاغتسال؛ بل أصبح وبالا مدمرا يغرق كل شيء، ويزيله..

فقد أفرط المسلمون في استعمال حق قيده الله، وأمر بإزالته، إذ قام التشريع في معظم حدوده في التكفير عن الذنوب علي إزالة الرق بقوله:

-«فك رقبة» البلد(١٣).. أو

-«تحرير رقبة» المائدة(٨٩)..

ولكنهم لم يمارسوا هذا التقييد إلا فيما ندر، وفي فجر الإسلام في عهد النبي، وخلفائه الأربعة، يقول العقاد في كتابه «بلال داعي السماء»:

-«كان في وسع الدعوة الإسلامية أن تمر بنظام الرق في العالم العربي، وفي العالم بأسره، ثم تتركه حيث كان فلا يحسب ذلك عليها، فلم يكن باعث إلي النظر في إنصاف الأرقاء، وهدم نظام الرق القديم غير باعث الفضيلة المثالية التي تعني بطلب الكمال، ولا تحفل بالمصلحة المادية أقل احتفال»..

ويقول عبدالحميد جودة السحار في كتابه «غزوة أحد»:

-«ولو اتبع المسلمون شريعة الله دون تأويل لصفي الرق في جيل، أو جيلين علي الأكثر دون أن تحدث في المجتمع الإسلامي هزات اقتصادية، ونكبات إنسانية من جراء تحريم الرق طفرة واحدة، ولكنها أهواء الناس، وانحرافات الأمراء، وجشع النخاسين التي أبقت الرق في الإسلام دون سند من شريعة الله، أو سنة رسول رب العالمين»..

ونضيف إلى ما قاله العقاد، والسحار وقوع الفقهاء فى براثن أهل الكتاب دون الفهم المستقل للنصوص من قرآن، وسنة، وإيثار الدنيا، والمال الحرام لإرضاء الحكام، وتعزيز وهم الخلافة..

كان عصر الحريم، وفقه الجوارى من الآثار السلبية التي تمخض عنها الاحتفاظ بنظام الرق فى الدولة الإسلامية؛ فقد كانت المرأة تخالط الرجال في صدر الإسلام في الحياة اليومية العادية، وجميع مظاهر الحياة الاجتماعية، بل كان النساء يصحبن المحاربين في صدر الإسلام، ويقمن بالتمريض، وتضميد الجراح، وبث الحماس، والنخوة، والحمية في صفوف المقاتلين؛ بل منهن من اشتركت في

obeikandi.com

القتال فعلا، وما كان نزول آية الحجاب إلا تنظيما لهذه المخالطة، ووضع الضوابط التي تصون كرامة المرأة دون الاستباحة، وتخطي الحدود، وكان سبب نزولها ما حدث للنبي عند زواجه من زينب بنت جحش، وما رواه أنس بن مالك:

-«لما أصبح رسول الله عروسا بزينب، دعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا، وبقي منهم رهط عند النبي فأطالوا القعود، فقام النبي فخرج، وخرجت معه حتي جئنا عتبة حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع، ورجعت معه حتي دخل بيت زينب فإذا هم قعود، فرجع، ورجعت معه حتي بلغ حجرة عائشة، ثم ظن أنهم خرجوا فرجع، ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا فضرب بيني وبينه سترا، ونزل الحجاب»..

ولم تكن هذه الحادثة أيضا هي السبب الوحيد في نزول الآية، فقد كان النبي يقاسي كثيرا من تصرفات لا تليق بحرمة البيوت، وخصوصية كل من فيها، وما فيها، يأتي من يسأل عنه فلا يجده، فتضطر النساء لاستقبالهم، والحديث معهم، وقد يكون منهم من هو فاسد الأخلاق، ضعيف الإيمان..

وقد يكون نظام عزل المرأة، وحجبها من العادات التي اتبعت قديما في الأقوام البدائية، وهي قوانين التابو لغيرة الرجل عليها، وخوفه من اغتصابها، أو خطفها ، فلم تكن هذه المجتمعات تراعي فيها القوانين الأمنية، وقد يكون هذا النظام مأخوذا من العادات الاجتماعية التي كانت معروفة لدي العرب قبل الإسلام، أو غيرهم في بلاد الشرق القديم، فتدل الحفريات في بلاد ما بين النهرين أن نظام الحريم كان متبوعا بها منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، كما وجدت آثار هذا النظام قبل الإسلام في بلاد فارس، وكان كل قصر من قصور بلاد اليونان القديمة للأمراء، وكبار المواطنين يحتوى علي أجنحة خاصة بالنساء، ولكن يبدو أن هذا النظام قد بلغ ما بلغه إبان الدولة الإسلامية خاصة المتأخرة منها، فحتي الأسماء المتصلة بهذا النظام لها دلالاتها الخاصة ككلمة حرم، وحريم، وهو المكان المحرم الذي لا يمكن الاقتراب منه إلا من صاحبه، وكان هذا الحرم عبارة عن سجن ينعم فيه المسجونات بكل وسائل الحياة المرفهة، والمنعمة حتي يكن علي استعداد لاستقبال صاحب الحرم إذا أرد الدخول إليه، والاستمتاع بمن فيه..

وكان نظام الحريم يقوم علي قواعد، ونظم، وإشراف دقيق بعيدا عن الهوى، والميل الجنسي فقاموا أول الأمر بتنصيب النساء المسنات لرعاية هذا المكان بمن فيه من زوجات، وجواري، وإماء؛ فالمرأة العجوز لها الكثير من التجارب، والخبرات بأحوال النساء، ونزعاتهن، وحيلهن، ومكائدهن؛ ثم

أدركوا أن المرأة المسنة مهما أوتيت من الحكمة، والفطنة، والكياسة ليس لها السلطان القوي علي كل هؤلاء النسوة من أجناس، وأعمار مختلفة، فلجأوا إلي وسيلة أشد، وأحكم وهي الرجل نفسه فهو من حيث الطبع أوفق من يعهد إليه بهؤلاء الحريم، ولابد في الوقت نفسه ألا تكون لديه القدرة علي الاتصال بهن جنسيا، ومن هنا نشأ الخصيان الذين عرفوا بعد ذلك باسم «الأغوات» الذين لم يكونوا مسلوبي الرجولة تماما، فقد كانوا محسوبين بين الرجال بالهيبة، والسطوة علي النساء، ولم يكن هؤلاء من أصحاب نسك، وزهد في النساء؛ ولكنهم يستطيعون الاستمتاع بالملاذ الأخرى غير لذة الجنس، ولما جاء الترك سموا هذا المكان «الحرملك»، وعرفته فارس باسم «إندرون»، حتى الهنود سموه «زندناه»..

وتوسعت الدولة العثمانية في نظام الحريم، وعززت من نظامه؛ فعلاوة علي حماية الحريم من النزوات الطائشة كان الخوف من قيامهن بتدبير المؤامرات، والدسائس، وإشاعة الشغب، والفتنة في أرجاء القصر السلطاني، فالمعروف أن نصف الثورات التي حدثت في القصر العثماني قد بدأت في الحريم..

كان علي رأس هذا النظام الحريمي «القيزلي أغا»، وهو رئيس الخصيان السود، ويجلب من إفريقية، والخصيان السمر من الهند، والخصيان البيض، وكان «القيزلي أغا» من كبار رجالات الدولة في مستوي الصدر الأعظم، وشيخ الإسلام، وله حق الدخول علي السلطان في أي وقت إذا تطلب الأمر..

وكانت المرأة التي تدخل الحريم السلطاني لا تخرج منه أبدا؛ إلا محمولة علي الأعناق، وكان هذا النظام متبعا أيضا لدي الأمراء، وكبار شخصيات الدولة، وربما كان صاحب الحريم طاعنا في السن فلا يستحسن منهن إلا جلسات المرح، والصخب، والأنس بهن، وشعوره أنه يمتلك كثيرا منهن؛ يسهرن علي راحته، وسعادته؛ فنشأت لديهن مشكلة الكبت الجنسي الذي ظهر في صورة أمراض عصبية مثل الاكتئاب، وتبلد الشعور، وسرعة الانفعال؛ حتي من كن منهن علي خلق طيب، وقد عمد الرجل لحل هذه المشكلة إلي صرف هؤلاء النسوة عن الناحية الجنسية بتعليمهن هوايات متعددة من الغناء، والضرب علي العود، أو الدف، وبعض الأشغال..

ولما أدخل الإسلام العلاقة الجنسية في عباءة الزواج الذي نظمه، وكفل له كافة حقوقه، وكيفية الدخول إليه، والخروج منه شرع يضرب بيد من حديد علي كل علاقة تخرج عن إطار الزواج تحت أي مسمي، أو ظرف من الظروف، يقول تعالي:

-«ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا» الإسراء(٣٢)..

وهو يمنع هذا الفعل من مبدئه؛ وهي النظرة المشوبة برغبة تؤدي إلي الإعجاب، وفتنة تؤدي إلي النزوع، والرغبة في الامتلاك، يقول النبي صلي الله عليه وسلم عن النظرة

-«الأولي لك، والثانية عليك»..

فالأولي للتبصر، والإدراك، أما إن عاد بالثانية فإنها للتحقيق، والإعجاب، أما سوء سبيل هذا الطريق فهو معروف، وقد حذر منه النبي صلي الله عليه وسلم بقوله

-«لا تزال أمتى بخير ما لم يفش فيها ولد الزنا، فإذا فشا فيها ولد الزنا، فأوشك أن يعمهم الله بعذاب»..

فرقت الأمم قبل الإسلام بين نوعين من الزنا؛ الزنا المطلق، وأسموه fornication، والزنا بزوجة الغير، وأسموه aduttry، والنوع الأول هو الاتصال بزوجة ليست زوجة أحد، بصرف النظر عما إذا كان الرجل متزوجا، أو غير متزوج، فيكون العقاب في هذه الحالة هينا، كما شرعت قوانين مصر القديمة، وبابل، وآشور، والهند، ثم انتقلت هذه القوانين إلي تشريعات اليونان، والرومان، كما تأثر بها اليهود إذ كانوا ينظرون إلي هذا النوع من الزنا علي أنه مجرد خطيئة تلزم الرجل عنها غرامة مالية فقط، جاء في سفر الخروج من التوراة(اصحاح ٣٢، الآيتان ١٦ – ١٧):

-«وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فأصبح معها، يمهرها لنفسه زوجة، إن أبي أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذاري»..

كما انتقلت هذه التشريعات إلي الديانة المانوية في القانون الديني لمانو:

-«أيما رجل زني ببنت من طبقته عن رضاها؛ فليس عليه شيء من العقوبة، وله أن يؤدي الأجرة إلي والدها، وينكحها إن رضي به، وأما إذا كانت البنت من طبقة أعلي من طبقته، فلتخرج البنت من بيتها، ويعاقب الرجل بقطع الأعضاء»، أما البراهمة فقد شددوا العقوبة بإحراق البنت حية..

أما النوع الثاني وهو الزنا بزوجة الغير؛ فقد تشددت فيه كل الشرائع لأنه خيانة لرجل آخر، وللمجتمع الذي سيري فيه الرجل المزني بزوجته طفلا ليس من صلبه، ومن ثم سيرثه الطفل بعد ذلك؛ مما يؤدي بالمجتمع إلي اختلاط الأنساب، فالزاني، والزانية شركاء في ارتكاب الجريمة، فكان العقاب لدي قدماء المصريين ضرب الرجل بالعصا ضربا شديدا، وجدع أنف المرأة، وسري هذا العقاب في بابل، وآشور، وفارس القديمة، أما الهنود فكانوا يطرحون المرأة للكلاب لتمزقها، والرجل

يضجعونه علي سرير محمي توقد النار من حوله..

وكان من حق الرجل اليوناني، والروماني قتل الرجل الذي يجده متلبسا بالزنا بزوجته، أو ينال منه غرامة مالية، ثم أصدر الإمبراطور «أغسطس» في القرن الأول قبل الميلاد مرسوما بمصادرة نصف ما يملك الرجل من مال، وعقار، ثم ينفي من موطنه، وتحرم المرأة من نصف صداقها، وما تملك، وتنفي أيضا في جهة أخري..

ولما جاء الإمبراطور «قسطنطين» قضي بإعدام الزاني، والزانية، ثم استبدلت العقوبة بالحبس المؤبد..

أما العقوبة لدى الإمبراطور «جستنيان» فكانت بضرب المرأة بالسياط، وحبسها في دير للراهبات ليخرجها زوجها بعد سنتين، أو يتركها للأبد..

أما اليهود فقط نصت توراتهم على:

-«وإذا اضطجع رجل مع امرأة اضطجاع زرع، وهي أمة مخطوبة لرجل، ولم تفد فداء، ولا أعطيت حريتها فليكن تأديب، ولا يقتلان لأنها لم تعتق» (التثنية، اصحاح ٢٢، آية ٢٢)..

وفي نص آخر:

-«إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل، يقتل الاثنان، والمرأة إذا كانت عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة، واضطجع معها، فأخرجوهما كليهما إلي باب تلك المدينة، وارجموهما بالحجارة حتي يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه، فتنتزع الشر من وسطك، ولكن لو وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحفل، وأمسكها الرجل، واضطجع معها يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده، أما الفتاة فلا تفعل بها شيئا» (التثنية، اصحاح ٢٢، آيات ٢٣ – ٢٦)..

ولكن اليهود أهملوا تنفيذ هذه التعليمات، وتركوها جانبا في عصر ما قبل السيد المسيح عليه السلام، ولم نستدل من تاريخهم علي حادثة واحدة نفذت فيها هذه التعليمات..

ولما جاء عيسي عليه السلام، وحاربه اليهود كرجل مناهض للقانون الروماني، وفي الوقت نفسه مخالف لتعاليم التوراة، حاصروه بالمواقف الصعبة؛ كما ساقوا إليه مرة امرأة زانية، وسألوه الحكم في أمرها، فإذا قضي برجمها فقد خالف القانون الروماني، وإذا قضي بغير الرجم خالف التوراة، ولكنه تخلص من هذا الامتحان بصفاء قلبه لله الذي لقنه الحكمة فقال:

-«من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ويرجمها بالحجارة»..

فبهتوا، وانفضوا من حوله مخذولين..

وكان لهذه الواقعة أثرها في التشريع المسيحي؛ إذ لم يلزموا الزاني، والزانية(رجل غير متزوج، وامرأة بكر) بأي عقوبة؛ بينما انصبت العقوبة علي الزاني المتزوج، والزانية المتزوجة؛ فأباحوا رفع الزوجة لدعوى تطليقها من زوجها الزاني بأخرى، ورفع الزوج لدعوى بطلاق زوجته الزانية بآخر، أما الحكمة فليس للزنا في حد ذاته، ولكن لنقض العهد الذي اتخذه الزوج على نفسه، أو الزوجة علي نفسها أمام المذبح في الكنيسة علي يد القسيس، كما أنه من حق الرجل أن ينال غرامة مالية من الرجل الذي زنا بزوجته، غير أن هذه العقوبة كانت موقوفة بقانون آخر يمنع المطلق، والمطلقة من الزواج مرة أخرى، فمن يطلب الطلاق فقد نفسه بالرهبانية طوال حياته، وقد لا يقوي عليها فيؤثر كل منهما الصمت، وإن كانت الحياة الزوجية في هذه الحالة قد تدنست لتصبح جحيما لا يطاق، وربما استمرأ أحد الزوجين الزنا بعلم الآخر..

لم تفرق الشريعة الإسلامية في هذه الجريمة الشنيعة بين الرجل، والمرأة، وبين البكر، والمتزوجة، وأساس التجريم سلوك طريق مخالف للطريق القويم وهو الزواج، فقد سهل له هذا، ولذلك يقول تعالي:

-«الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين(٢) الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك علي المؤمنين(٣)» النور..

ويقول الرسول صلي الله عليه وسلم:

-«البكر بالبكر جلد مائة، وتغريب عام»..

أما المحصن – أى المتزوج – فعقوبته الرجم بالحجارة حتى الموت..

كما ذهب الإسلام لأبعد من ذلك فهو يحرم زواج من تعود علي هذه الفوضي الجنسية من الرجال، والنساء من الأعفاء الطاهرين من الرجال، والنساء، فلا يبيح للعفيف الزواج من البغي الزانية، أو العكس فقد كان في المدينة بعض بغايا المشركين من النساء الأغنياء، فرغب فقراء المهاجرين فى الزواج منهن، واستأذنوا رسول الله فلم يأذن لهم لقوله تعالي:

-«الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك علي المؤمنين» النور(٣)..

وجاء أيضاً القول المأثور:

-«من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها»..

ولما كان الإسلام للناس كافة فلم يترك جريمة الزنا بالمثل(الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة) دون عقاب فلم تكن هذه الجريمة منتشرة في الجزيزة العربية وقت نزول الإسلام يقول تعالي:

-«واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتي يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا(١٥) واللذان يأتيانها منكم فأذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما(١٦)» النساء..

والزنا الواقع بين النساء يعرف «بالسحاق»، والوقع بين الرجال يعرف «باللواط»، فعقوبة النساء الحبس في البيوت للابتعاد عن الاتصال بالأخريات إلي الوفاة، أو قد يصلح الله حالهن بالزواج، والميل عن هذا الطريق، أما الرجال فعقوبتهم الإيذاء، وقد فوضها القرآن لولي الأمر حتى الإقلاع عن ذلك..

obeikandl.com